الطفل الفلسطيني الذي نما في هذا المناخ، لا بدّ له من ان يزداد صلابة. فالداء الذي يصيبني ولا يقتلني يزيدني صلابة واقتداراً. وربما كان مفتتح الرواية أكثر قدرة منّا على نقل هذا التصوّر الذي يمثل «الخطاب» الروائي في نظامه الفني وعبر شروطه الخفية. قال المفتتح المجتزأ من قصيدة لفدوى طوقان:

«كبروا في غاب الليل الموحش، في ظل الصبار المر.
«كبروا أكثر من سنوات العمر.
«كبروا، التحموا في كلمة حب سرية.
«حملوا أحرفاً، انجيلاً، قرآناً يتلى بالهمس.
«كبروا مع شجر الحنّاء، وحين التثموا بالكوفية
«صاروا زهرة عباد الشمس».

تجليات النبوءة

وعلى هذا النحو، توالت تجليات النبوءة عبر النص الذي يعبّر عن نفسه، وبوجه خاص بدءاً من اللوحة ٣٣، وهي اللوحة التي تكاد تنقل فيها من الغيب ما سوف تنجلي عنه وجه الايام فيما حدث بعد ذلك.

ان هذه الرواية، التي أُصدرت قبل اشتعال الانتفاضة بسبعة أعوام، تستشف من الحاضر ما ينبىء بالآتي. ان المرأة داخل النص تحمل حجراً ولكن «بعد ان احسنت استغلال الحجر». والاولاد يقفون وفي أيديهم حجارة «احسن استغلالها... يتحينون الفرصة». والملاحظة التي لا تفلت منّا ان لفظة «الحجر» تأتي كثيراً بالحرف الواحد، وهو ما يحدث على كل مرادفات الانتفاضة قبل ان يتحوّل الغضب الى مرجل عنيف.

اننا أمام أطفال لا يحملون غير الحجارة، ويواجهون جنوداً مدججين بالسلاح يتقدم الاطفال ويتراجع الجنود. وأحدى شخصيات الرواية تتحدث عمّا يحدث، فتقول «... تلك الانتفاضة». كما تردّدت داخل النص مرادفات والفاظ مثل «الحجر» و«الانتفاضة» و«الاولاد»، الى غير ذلك. كما تردّدت خارج النص مثل هذه الاشياء بعد ذلك بسنوات. لنقرأ هذه الفقرة:

«...فتى في السابعة عشرة يقف مسنداً ظهره الى جدار. ويحيط به جنديان. وجهه نحيل شاحب. بشرته بيضاء ولحيته لم تطلع بعد. حب الشباب يأكل خدّيه. عيناه عسليتان.
«...
« ـ وفّري دموعك
« ـ لكنه طفل بريء
« ـ ماذا سيفعلون به؟ لو كنت مكانه
«...
« ـ تبكين ولداً وتنسين أمة بأسرها.
« ـ لكنني أرى فيه أمّة بأسرها».

وامتلأ النص بكامله بكل ما عرفناه من ظواهر الانتفاضة بعد ذلك، ممّا يضع أمام أعيننا صوراً كاملة (طبق الاصل) لما حدث في نهاية الثمانينات. وهو ما تحقق حين تحوّلت النبوءة الى انتفاضة.